

الرحلة في المغرب العربي

(دوافعها - أنواعها - رواها)

أ/ عبد الصمد عزوزي

أستاذ الأدب المغربي والأندلسي

جامعة تلمسان/ الجزائر

توطئة:

ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة، توالى إمارات ودويلات مختلفة على المغرب العربي، وكان أمراء هذه الدول وملوكها على جانب عظيم من العلم والمعرفة، فساهموا مساهمة عظيمة في الحياة الثقافية بالمغرب، ما أدى إلى انتشار مجالس العلم والتعليم في المساجد والكتاتيب.

ولما أراد المغاربة الاستزادة من العلوم والمعارف، أخذوا يتجهون إلى المراكز الثقافية والعلمية المشهورة آنذاك بالشرق العربي؛ كدمشق، وبغداد، ومصر، والحجاز. وبما أن العلم كان يحصل أساسا بالمشاهدة، استوجب ذلك التنقل للارتواء من الأصول. إضافة إلى أن الإسلام أوجب على المسلمين أداء فريضة الحج، فانطلق المغاربة يسابقون أشواقهم لزيارة البقاع المقدسة، والقيام بالركن الخامس من أركان الإسلام، فانطلق بذلك عهد الرحلات عند المغاربة.

فما مفهوم الرحلة؟ وكيف نشأت عند المغاربة خصوصا؟ وما هي دوافعها؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، ارتأيت أن أقوم بهذه الدراسة الموجزة لأدب الرحلة في المغرب العربي.⁽¹⁾

1) مفهوم الرحلة:

لغة: أصل كلمة الرحلة في اللغة، رَحَلَ. وَالرَّحْلُ: مركب للبعير والناقة. وَالرَّحْلُ: منزل الرجل ومسكنه. وَالرَّحْلَةُ: اسم للارتحال والمسير، يُقال: دنت رحلتنا. والارتحال: الوجه الذي تقصده. يقال: رجلٌ رحالٌ، أي عالم بذلك مجيد له.⁽²⁾

أمّا اصطلاحا: فالرحلة أو ما يعرف بأدب الرحلة، هو فنٌ أصيل من فنون النثر العربي، ظهر ببداية الفتوحات الإسلامية، حين احتاج المسلمون إلى معرفة الطُرُق المؤدية إلى البلاد التي فتحوها لنشر الإسلام.

ولقد عرفت الرحلة تطوراً ملحوظاً في العصر العباسي، حيث أصبحت الرحلة فناً أدبياً قائماً بذاته، فتسابق الأدباء والعلماء والحجاج إلى تدوين رحلاتهم.

فأدب الرحلة أدب وصفيّ، ذو طابع إخباريٍّ وتسجيليٍّ، يهتمّ بجمع أخبار البلاد والعباد، وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة. وهو يتّسم بسمات تاريخية وجغرافية، لاهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميّز غالباً عمّا سواه.⁽³⁾

(2) دوافع الرحلة في المغرب العربي: تعددت دوافع الرحلة عند المغاربة؛ من طلب للعلم، وحجّ لبيت الله الحرام، وحُبّ للاستكشاف والاستطلاع، والسفارة. لكن تبقى الدوافع الدينية هي الأساس في قيام المغاربة برحلاتهم، وذلك لسببين رئيسيّين:

أما السبب الأول؛ فهو التزامهم بأوامر الله سبحانه وتعالى الذي يحث الإنسان المسلم على طلب العلم، حتى لو ارتحل في سبيل ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽⁴⁾

والتزامهم بوصية الرسول ﷺ في أنّ (طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة). وأنّ ذلك واجب ديني. فمن واجب كلّ مسلم أن يطلب المعرفة، وأن يصل إليها وينالها أيّاً كان مصدرها ومكان تواجدها.

أما السبب الآخر، فهو أنّ الله فرض على المسلم أداء فريضة الحجّ إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا أَوْعَلَىٰ كُلِّ مَضَامِرٍ بِأَئْيَمِنٍ﴾⁽⁵⁾

فكان المغاربة يتسابقون لأداء هذه الفريضة، وكلّهم شوقٌ لزيارة قبر خير المرسلين. ثم إنّ هؤلاء المغاربة وفي طريقهم السنوي إلى مكة لأداء فريضة الحج، كانوا يغتتمون الفرصة فيزورون مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة في طريقهم، كالقيروان، والجامع الأزهر، فيستفيدون ويُفيدون.

ويُرجع العلامة عبد الرحمن بن خلدون سبب رحلة المغاربة في طلب العلم إلى انقطاع سند تعليم العلم عندهم، حيث يقول: "...لم يتصل سندُ التعليم فيهم، فعسرَ عليهم حُصول الملكة والحدّث في العلوم".⁽⁶⁾

وقد كان المغاربة يرتحلون إلى عواصم الثقافة الإسلامية للاستزادة من العلوم والمعارف التي لا يجدونها إلا هناك. على أنّ هناك بعض المغاربة لم تكن رحلتهم في طلب العلم، بل كانت في سبيل نشر العلم وتعليمه، لأنّهم كانوا قد حصلوا على نتاج معرفيٍّ كبير في

بلدانهم، رحلوا إلى البلاد العربية وقد نُضِجَتْ عقولُهم، واكْتَمَلَتْ معارفهم، فأقاموا هناك مجالس للعلم والتدريس، فالتف حولهم طلبة كثيرون، ومن أمثال هؤلاء: بَكْر بن حَمَّاد التَّاهرتي، وأحمد المَقْرِي التلمساني، وعبد الرحمن بن خلدون، وغيرهم.

(3) أنواع الرحلة في المغرب العربي: تتوَعَّت الرحلة عند المغاربة تنوعاً كبيراً، منها الرحلة العلمية، والرحلة الحجازية، والرحلة الاستكشافية، والرحلة السفارية، وغيرها من أنواع الرحلات التي عُرِفَتْ في المغرب العربي، وسأحاول الحديث عن كل نوع منها بشيء من الإيجاز.

(أ) الرحلة العلمية: كان طالب العلم في المغرب يُتِمُّ تعلّمه في بلاده، ثم يسافر بعيداً، أو يغترب طويلاً، وينزل بإحدى حواضر العالم العربي والإسلامي، ويُجالس من اشتهر بها من علماء عصره، ويسعى في الأخذ عنهم ونيل إجازاتهم⁽⁷⁾ والرواية عنهم، حرصاً على الإسناد العالي⁽⁸⁾، الذي يصل الطلبة بمؤلفي كتب الحديث واللغة والعلوم. فكان طالب العلم من المغرب: "يتجاوز الحدود الإقليمية، ويلقى الترحيب حيث يحلّ طالباً للعلم... جواز مروره وإقامته الانتماء الحضاري، الحرف العربي والعقيدة الإسلامية، ولا شيء يقلق راحته في هذا القطر أو ذاك".⁽⁹⁾

وقد تكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم، فقال: "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مريد كمال في التعلّم... والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يَنْتَحِلون به من المذاهب والفضائل، تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة مُحَاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات المباشرة والتلقين، أشدُّ استحكاماً وأقوى روحاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها".⁽¹⁰⁾

والرحلة في طلب العلم كانت تقليداً مَعْمُولاً به في بلاد الإسلام في جميع الأزمنة "فطالب العلم كثيراً ما يكون من كبار العلماء ويسافر لأخذ الإجازة أو لسماع مَنْ هو أعلمُ منه. وقد كان الطلاب والعلماء يَشْدُونُ الرِّحَالَ خصوصاً لرواية الحديث أو لسماع كبار الأئمة من الفقهاء والمحدثين".⁽¹¹⁾

فالرحلة في طلب العلم هي جزء من مَتَمَّات التكوين الفكري والعلمي، فالتنقل بين المدن والأقطار والأوطان، يُثري خبرة الطالب، كما أن احتكاك الطالب بالشيوخ والعلماء يُكوِّنُ شخصيته العلمية الخاصة، زيادة على الاستفادة الكبيرة حين تتنوع منابع المعرفة وتختلف مصادرها.

وقد كان كثير من طلبة العلم المغاربة، أثناء إقامتهم في إحدى البلاد الإسلامية، يُقَيِّدُون ما يَحْدُثُ، ويُخَصِّصُونَ ما يَرَوْنَ، كما يُسَجِّلُونَ طُرُقَ دراستهم، وما هي الكتب التي يدرسونها، فتصبح هذه المعلومات هيكل كتاب يُعَرَّفُ فيما بعد بالرحلة العلمية أو الفهرسة، وهذا ما فعله كثير من الرحالة المغاربة نذكر منهم:

- الرحالة محمد الدرعي الناصري صاحب (الرحلة المراكشية).
- الرحالة محمد بن رُشيد السبتي (ت: 721 هـ) صاحب رحلة (ملء العيبة).
- الرحالة محمد بن زاكور الفاسي (ت: 1120 هـ) صاحب رحلة (نشر أزهير البستان).

ويرى الشيخ البشير الإبراهيمي أن الاستطاعة شرط من شروط الرحلة في طلب العلم، حيث: "إن الرحلة في طلب العلم كالرحلة لأداء الحج، كلتاهما مشروطة بالاستطاعة، وإن شرط الاستطاعة في طلب العلم لأوكد، لأن مناسك الحج تُقضى في أيام، وطلب العلم لا يقضى إلا في أعوام". (12)

وقد حث الإمام الشافعي طالب العلم على الترحال، مُبيناً له فائدة ذلك في أبيات قال فيها:

ما في المقام لذي عقل وذو أدب من راحة فَدَعِ الأوطان واغترِبْ
سافرْ تجدْ عَوْضا عمّن تفارقه واتعب فإن لذيذ العيش في التعب
إنني رأيت وقُوفَ الماء يُفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب (13)

ب (الرحلة الحجازية: لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالحج إلى بيته العتيق، فتوجه المغاربة إلى الأماكن المقدسة، مُلبين نداء ربهم، وأرواحهم وأخيلتهم تسبق أجسادهم وكلهم شوق إلى بلوغ المكان الذي أنزل فيه الوحي على سيد الخلق محمد، صلى الله عليه وسلم، وزيارة قبره والدعاء عنده، فقد قصد كثير من الأدباء والعلماء البقاع المقدسة، وقاموا بأداء فريضتهم، على أن بعضهم تجاوز هذا الهدف، فأفضى به الترحال إلى أماكن بعيدة. وقد برع كثير من الحجاج المغاربة في وصف رحيلهم وإقامتهم وطرق سيرهم وطريقة أدائهم لفرائض الحج وأركانه، وسجلوا كل ذلك في تقايد، جمعوها في كتاب أسموه (الرحلة الحجازية) فأصبحت كتب رحلاتهم دليلاً لمن ينوي السفر إلى الأماكن المقدسة.

ولعل أشهر من يُمثل هذا النوع من الرحلة عند المغاربة:

❖ الرحالة محمد العبدري صاحب (الرحلة الحجازية).

❖ الرحالة خالد بن عيسى البلوي (ت: 737 هـ) صاحب رحلة (تاج المرق في تحلية علماء المشرق).

ج) الرحلة الاستكشافية: الدافع إلى هذا النوع من الرحلات يكون ذا طابع تجاري في كثير من الأحيان، بمعنى أن الرحالة لا يستهدف من وراء تجواله سوى استكشاف الأسواق، لكنه جانبياً يستغل رحلته لأغراض علمية، فيُسجل ما يراه وما يصادفه من عجائب الأمور وغرائب الأشياء، وقد يكون الهدف من هذه الرحلة توسيع نطاق المعلومات عن المعمور من الأرض، أو الحصول على معلومات بشأن منطقة معينة. وهذا النوع من الرحلات قد يكون بتكليف من ملك

أو أمير، ويتمويل منه، كالرحلة التي قام بها أبو عبد الله الإدريسي بطلب من ملك صقلية (روجار بن روجار) والتي دوّنها في كتاب سمّاه (نُزْهُةُ المُشْتاقِ في اخْتِرَاقِ الآفاق).

(د) الرحلة الاستطلاعية: هذا النوع من الرحلة يكون بدافع روح المغامرة، وحبّ الاستطلاع، والرغبة في دراسة أحوال الشعوب ومعرفتها. فقد يخطر لمُحبّ التّجوال والمغامرة أن يرتحل لمدة طويلة، تستغرق أحياناً عدة سنوات، يُدوّن أثناءها الرّحالة ما يُعجبه أو ما يلفت انتباهه، أو يخالف ما جرت العادة عليه في بلاده، ويضمّن ذلك في كتاب يُسمّيه الرحلة.

ولعل أبرز الرّحالة المغاربة في هذا الصنف، الرحالة الشهير "ابن بطوطة"، صاحب الرحلة المسماة (تُحفة النُّظَّار)، والرّحالة الحسن بن محمد الوزّان الفاسي (ت: 930هـ)، المعروف بليون الإفريقي صاحب الرحلة المُسمّاة (وصف إفريقيا).

(هـ) الرحلة السّفارية: ظهر هذا النوع من الرّحلة في المغرب العربي في القرن العاشر الهجري فكان السلاطين يُعيّنون بعض مُقرّبيهم للقيام برحلة إلى البلدان الأجنبية للتفاوض في شأن هُدنة أو تسريح أسرى. وكان هؤلاء الرّحالة يُعدّون تقريراً مُفصّلاً يذكرون فيه كل ما حدث لهم، وكيف كان اللقاء بهم واستقبالهم، كما كانوا يُدوّنون بعض ما رأوه وشاهدوه في البلاد التي ذهبوا إليها وهذا ما فعله الرّحالة "علي التّمقروتي" (ت: 1003 هـ) الذي قام برحلة سفارية إلى اسطنبول سنة (968 هـ/1580م) ودوّنّها في كتاب أسماه "نُفحة المسكّية في السفارة التركية". وما فعله الرّحالة أحمد الغزال (ت: 1191 هـ) الذي قام برحلة سفارية إلى إسبانيا في سبيل تحرير الأسرى المسلمين، سمّاه: (نتيجة الاجتهاد).

الرحلة الفهرسية:

وهي الرحلة التي يقتصر فيها مؤلفها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيخ الذين قرأ عليهم⁽¹⁴⁾، والكتب التي درسها، كما كان الرّحالة يُورد في كتابه أسانيده الكثيرة المتّصلة بأصول الروايات. فالرحلة الفهرسية من أهمّ المصادر في تاريخ الأدب العربي، وهي مفيدة جداً لمعرفة تراجم العلماء والأدباء في مختلف العصور والبلاد العربية. ويمثّل هذا الصنف من الرّحلة، الرّحالة "القاسم بن يوسف التّجيبّي" الذي عدّد كثيراً من شيوخه في كتاب رحلته الذي أسماه (مُسْتَفاد الرّحلة والاعتراب). والرحالة أبو راس الناصري الذي تحدث عن شيوخه في رحلته المسماة (فتح الإله ومنّته في الحديث عن فضل ربّي ونعمته).

(4) فوائد الرحلة ودواعي تدوينها: يرى الأستاذ "محمد بن تاويت الطنجي"، أن للرحلة - خاصة في طلب العلم - فائدتين رئيسيتين: (15)

- الفائدة الأولى: ضمان سلامة المنهج العقلي، وذلك عندما يقع تصحيح المتون المروية، ووصل أسانيدها بأصحابها، لتكون أساسا صالحا للبحث والدرس وبناء الأحكام عليها.
- الفائدة الثانية: تصحيح منهج التفكير وبناءه على أثبت القواعد، ومن الأقوال المأثورة (إذا أردت أن تعرف مقدار شيءك فجالس غيره).

ويرى عبد الرحمن بن خلدون أن الرحلة في طلب العلم تتيح للطالب "لقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يفيد في تمييز المصطلحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها..." (16) وهي أيضا، تحافظ على اتصال أسانيد العلوم، وصيانة الأمانة العلمية، فكان طالب العلم إذا انس من نفسه قدرة علمية وأراد أن يحاضر عن كتاب غيره، "وجب عليه أن يحصل على إجازة من مؤلف الكتاب، ولم يكن لأحد أن يأخذ آراء أساتذته التي ألقاها شفويا في إحدى محاضراته ليدرسها لتلاميذه، دون أن يستأذن صاحب الرأي فيها" (17) فالاستئذان هو بمثابة تصريح بنقل إنتاج علمي أو أدبي.

كما أن الرحلة في طلب العلم والحج، كانت وراء انتشار حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب، فكان حجاج المغرب الأقصى يتركون آثارهم ومؤلفاتهم في الجزائر ذاهبين وآيبين. ومن جهة أخرى كانت تونس معبّرا ومدرسة للجزائريين، فكانوا يتصلون بعلمائها ويتبادلون معهم التأليف والإجازات، وهكذا في كل بلد يمر به الحجاج وطلاب العلم.

فالرحلة كما قال ابن زاكور الفاسي "...مئة من الله ونحلة تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع، وتعب من كابد لها نصبا، علما غزيرا وأدبا". (18)

وقد أجمل الإمام الشافعي فوائد الرحلة، في أبيات قال فيها:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم و اكتساب معيشة و علم و آداب و صالحة ماجد
فإن قيل في الأسفار هم وكربة وقطع فيافي واقتحام شدائد
فموت الفتى خير له من مقامه بأرض عدو بين وأش وحاسد (19)

أما عن دواعي تدوين الرحلات، فقد كان يدعو الرحالة المغاربة إلى تسجيل رحلاتهم دواع مختلفة: فمن الرحالة - وخاصة الجغرافيين - من كان يحرص على تدوين ملاحظاته ومُشاهداته في المناطق التي زارها فيصف عمرانها وسكانها، ويصف أعمالهم وحرفهم

وصنائعهم، ويدرس طبائعهم وعاداتهم، فكان هؤلاء الرحّالة ذوي حرص شديد على تدوين نتائج استقصائهم وملاحظاتهم الدقيقة عن المنطقة التي زاروها.

ومن الرحالة من كان يزور البقاع المقدسة، فيدوّن ما يراه بواجب إطلاع مواطنيه على أخبار تلك البقاع الشريفة، وتشويقهم إليها، فيجعل المسلمين يشعرون بالحنين إلى تلك البقاع الطاهرة، والتي كانت زيارتها لا تتمّ إلا في ظروف قاسية، ولا تتحقّق إلا بعد جهد ومشقة.

ومن الرحّالة من يدعوّه تقديره للعلم وأهله، والرغبة في إثبات سنده العلمي إلى تصنيف كتاب يجمع فيه تراجم شيوخه، ويذكر الكتب التي أخذها عنهم، ويتحدّث عن سلسلة الأسانيد المتصلة بشيوخه، فيطلق على كتابه اسم "الرحلة" أو "التقييد"، وهناك من يُسمّيه "الفهرست" أو "البرنامج".⁽²⁰⁾

ويرى الأستاذ - حسن حسني عبد الوهاب - أن من دواعي تدوين الرحلات - الحجازية خصوصاً - وتسجيل أحداثها "تخليد ذكر صاحب الرحلة، ورغبته في هداية مواطنيه، وتعريفهم المسالك التي يقطعها الحجيج، والمخاطر التي ينبغي الحذر منها في الطريق".⁽²¹⁾

فقد كان الرحّالة المغاربة يسجّلون انطباعاتهم كل حسب تكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتمّ بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدّث عن المدن ووصف المسالك، ولكن أعمالهم جميعاً أصبحت لا غنى عنها في دراسات المؤرّخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع ومؤرخي الأدب.

5) رَوَاد الرحلة في المغرب العربي: من طلائع الرحالة المغاربة إلى المشرق العربي، الأديب الجزائري "بكر بن حماد التاهرتي"، الذي ارتحل إلى القيروان، وأخذ عن صاحب المدوّنة "سحنون بن سعد"، ثم دخل بغداد وأخذ عن علمائها، والتقى بأدبائها وشعرائها، وكانت له معهم مساجلات أدبية طريفة.⁽²²⁾

وقد كثر الرحالة في المغرب العربي، حتى أصبح من المستحيل عدّهم لكثرتهم، منهم من اهتمّ بتدوين رحلته في كتاب مستقلّ، ومنهم من سجّلها ضمن مؤلّفاته المختلفة. وسأقتصر هنا على ذكر أشهر الرحالة المغاربة الذين اهتمّوا بتدوين رحلاتهم، وهنا ذكر بعضهم مرتّبين ترتيباً زمنياً:

1. **محمد الإدريسي (493-569هـ):** هو أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي العلوي الحمودي، أكبر جغراف في المغرب والأندلس.⁽²³⁾ ولد بسبّطة سنة 493هـ، تعلم في قرطبة، ثمّ تنقل في كثير من البلاد، كالأندلس، والمغرب، ومصر، والشام، وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف في صقلية. وقد سجّل رحلته في كتاب سمّاه: (نزهة المشتاق في معرفة الآفاق). وقد

زوّده بأكثر من سبعين مُصَوِّراً يصف فيه العالم الإسلامي، كما يضمّ الكتاب وصفا دقيقا للعالم المسيحي، وقد انتهى من تأليفه سنة 547هـ. توفي الإدريسي سنة 569هـ. (24)

2. **عبد الله التيجاني (670-718هـ):** هو أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني، ولد في تونس ما بين (670 و675هـ)، ونشأ في بيت علم ومعرفة. بدأت رحلة التيجاني حين خرج من تونس برفقة السلطان ابن اللحياني. (25) فوصل طرابلس وأقام بها مدة، ثم عاد إلى تونس سنة 708هـ. توفي التيجاني مقتولا مع أفراد أسرته سنة 718هـ.

3. **ابن رُشيد السبتي (ت:721هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن رُشيد السبتي، تاريخ ولادته غير معروف، له الرحلة الكبرى في ست مجلدات، سمّاها: (ملء العيّبة بما جُمع في طول الغيبة في الوجهة الوجهية بمصر والشام ومكة وطيبة). (26) فيها دروب وفنون من الفوائد العلمية والتاريخ، وطُرف من أخبار حسان. (27) والرحلة هذه في أربعة أسفار، أودع فيها ذكر شيوخه، وجمع فيها من الفوائد الأدبية كلّ عجيبة وغريبة. (28)

4. **محمد العبدري (توفي حوالي 725هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الحبحي، المعروف بالعبدري نسبة إلى بني عبد الدار، ولد في حاحة بالمغرب الأقصى في تاريخ غير معروف. بدأ رحلته سنة 688هـ عبر شمال إفريقيا بقصد الحجّ، ماراً بالسّوس الأوسط، ثم زار تلمسان، والجزائر، وبجاية، وقسنطينة، وتونس. ثم سار بعد ذلك مجتازاً ليبيا وصولاً إلى الإسكندرية، ثم تابع طريقه إلى مكة فأدى فريضة الحجّ. ثم قفل عائداً ماراً بفلسطين ثم القاهرة، ثم تابع طريقه الذي جاء منه. سجّل العبدري كلّ ما رآه في كتاب سمّاه (الرحلة المغربية). (29)

5. **القاسم التّجيبّي (670-730هـ):** هو القاسم بن يوسف التّجيبّي السبتي، وُلد في حدود سنة 670هـ، قام برحلة حجازية التقى فيها بعدّة شيوخ، وقرأ عليهم، وأجازهم بعضهم. وقد سجّل ذلك في كتاب سمّاه: (مُسْتَفَاد الرحلة والاغتراب). كما سجّل فيه طريق رحلته إلى البقاع المقدسة، ووَصَف فيه مناسك الحجّ، وعدّد فيه شيوخه الذين لقيهم، وتحدّث عن مروياتهم. وتنقسم هذه الرحلة إلى ثلاثة أقسام، ضاع منها القسمان الأول والثالث، ويبدو أنّ القسم الأول تضمّن خروجه من سبّة إلى مصر، لأنّه بدأ القسم الثاني - وهو المُحقّق - بالحديث مباشرة عن زيارته لمصر. وقد يكون القسم الثالث متضمّناً جزءاً من أخبار الحجاز والشام ثم العودة إلى الوطن. (30)

6. **محمد بن بطوطة (703-779هـ):** هو شيخ الرحالة محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ولد بطنجة سنة 703هـ. بدأ رحلته سنة 725هـ، وزار مدن شمال إفريقيا، ثم زار معظم مدن الجزيرة العربية، وأدّى فريضة الحجّ أربع مرات في السنوات (726 - 727 - 729 - 748هـ).

ثمّ زار آسيا الصغرى وبلاد القرم، ثم ركب البحر الأسود إلى جنوب روسيا، فأقام في خوارزم وسمرقند، ثم اتّجه إلى بلاد الهند، وجزر المالديف والصّين. ثم قفل عائداً إلى فاس فدخلها سنة 750هـ. فكانت مدّة رحلته الأولى 24 سنة. ثمّ قام برحلة ثانية زار فيها الأندلس، ثم السودان فوصل إلى نهر النيجر، ثم عاد إلى فاس وألقى عصا الترحال نهائياً. ولم يقم ابن بطوطة بتسجيل رحلته بنفسه، بل أملاها على ابن جُزَيّ الكلبي.⁽³¹⁾

7. **ابن مرزوق الخطيب (710-781هـ):** هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني. يُعرف بابن مرزوق الخطيب الأكبر، والجَدّ، والرئيس.⁽³²⁾ وُلد بتلمسان سنة 710هـ، ونشأ بها، ولما بلغ العشرين من عمره، سافر بصحبة والده إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ، وبعد أن قرّر والده مجاورة الحرمين الشريفين عاد إلى بلاده ماراً بالشام، ثم تونس، فالجزائر، واتّصل في طريقه بشيوخ هذه البلدان وعلمائها، وشارك في حلقات دروسهم، وقرأ عليهم وحدّث عنهم.⁽³³⁾ ثم انطلق في رحلة أخرى سنة 737هـ إلى المغرب الأقصى.

ولم يُسجَل ابن مرزوق رحلته في كتاب مستقلّ، بل تحدّث عن بعض تفاصيلها في كتابه المسمى: (المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن). وهذا الكتاب كان قد ألّفه ابن مرزوق ليترجم فيه للمولى أبي الحسن المريني سلطان المغرب آنذاك، بعدما التقاه أثناء رحلته في المغرب الأقصى.

8. **عبد الله العياشي (1037-1090هـ):** هو أبو سليم عبد الله بن محمد العياشي المالكي، ولد سنة 1037هـ بقرية آيت عياش بالجزائر، تلقّى دراسته الأولى بزاوية أبيه، ثمّ انتقل إلى المشرق طلباً للعلم ثلاث مرات (1059-1064-1073هـ). له مؤلّفات عديدة في الحديث، والتصوف، ومن أشهر مؤلفاته في التراجم كتابه (اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار). إلّا أنّ العياشي اشتهر برحلته المسماة (ماء الموائد)، وهي رحلة ضخمة في جزأين ضمّنها أخبارا وحوادث شاهدها أو سمع عنها أثناء رحلته، وأهمّ ما فيها وصف طريق الصّحراء، والسكان وأحوال المعاش، والحديث عن أتعاب المسافرين. وقد خصّص العياشي صفحات عديدة من كتابه للحديث عن الجنوب الجزائري ومُدنه وعلمائه.⁽³⁴⁾

9. **ابن زاكور الفاسي (1075-1120هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن زاكور الفاسي، ولد بفاس وبها تعلّم، ثم انتقل إلى تيطوان (تَطَاوُنْ) وأخذ عن علمائها، ثمّ قَرِمَ إلى الجزائر بحرا سنة 1093هـ، فأخذ عن علمائها وأجازهم بعضهم. وقد دوّن كلّ ذلك في كتاب سمّاه: (نشرُ أزهير البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان). تحدّث فيه عن رحلته إلى تطوان ثم الجزائر، وعن العلاقات الثقافية بين المغربيين الأقصى والأوسط.⁽³⁵⁾

10. ابن عمار الجزائري (ت: 1204هـ): هو العلامة الجزائري أحمد بن عمار الجزائري، تولّى فتوى المذهب المالكي، وجلس للتدريس في الجامع الكبير في العصمة، وعمل إماماً خطيباً، ثم تفرّغ بعد ذلك للتأليف والرحلة. تنقل ابن عمار في تونس والمشرق العربي عدّة مرّات، وأدّى فريضة الحج سنة 1166هـ، وجاور بالحرمين حوالي 12 عاماً. ألّف ابن عمار رحلة حجازية سمّاها: (نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب). أي الحبيب المصطفى ﷺ. وقسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول جعله مقدمة، جمع فيه النوادر والأشعار والأخبار المتفرقة عن مولد الرسول ﷺ، والأشواق للبقاع المقدّسة. حتى بلغت المقدمة 254 صفحة، كما تحدّث فيها عن الداعي إلى تأليف رحلته. وهذه المقدمة هي المطبوعة الآن تحت اسم (رحلة ابن عمار). وقد ضاع القسم الثاني والثالث منها. (36)

خاتمة:

بعد هذه الدراسة المختصرة لأدب الرحلة في المغرب العربي، والحديث عن رواد الرحلة المغاربة، نستطيع أن نستخلص ما يلي:

❖ إنّ الرحلة ساعدت على جلب المعارف والعلوم إلى المغرب، فقد قام المغاربة برحلاتهم إلى المشرق، وتزوّدوا هناك بشتّى أنواع العلوم، ولدى عودتهم إلى بلادهم، قاموا باقتناء كُتب كثيرة أدخلوها معهم إلى المغرب العربي، وعملوا على تدريسها وشرحها. فالشيخ يحي بن يحي المصمودي مثلاً، هو أوّل من أدخل الموطأ إلى المغرب والأندلس، فأكبّ الناس عليه يقرؤونه، حتى أصبح كلّ رواة الموطأ يصلون سندهم الأعلى بحيي بن يحي، فكانت الرحلة وراء انتشار الكتب والأفكار والمذاهب.

❖ إنّ رحلة بعض المغاربة ساعدت على نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، خصوصاً في جنوب شرق آسيا، حيث استطاع الرّحالة والتّجار أن يفعلوا ما لم تفعله الفتوحات من نشر الإسلام في هذه الأقطار.

❖ إنّ الرحلة نشطت همم الرحالة المغاربة على التأليف والتّصنيف، فبعد الرحمن بن خلدون لم يكن ليؤلّف مقدّمته الشهيرة، لو لم يقيم برحلة في الجنوب الجزائري. وأحمد المقرّي التلمساني ما كان ليؤلّف كتابه (روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقّيته بالحضرتين مراكش وفاس) لو لم يقيم برحلته إلى مراكش وفاس. وكتب الرحلات نفسها لم تكن لتؤلّف لولا قيام أصحابها برحلاتهم وأسفارهم.

❖ إنّ كتب الرحلات سلّطت الضوء على شخصيّات علميّة كثيرة في المشرق والمغرب، لم تكن لتعرف لولا مؤلّفات الرّحالة.

❖ لقد حفظت لنا كتب الرحلات نصوصاً أدبيّة قيّمة، نشراً وشعراً، كما حفظت لنا تراجم كثيرة لأدباء وعلماء وفقهاء من المشرق والمغرب. كما حفظت لنا الرحلات صوراً حيّة لجوانب كثيرة من الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والدينية في مختلف الأقطار والعصور.

إذا، فقد كان المغاربة حُجّاجاً وطلّاب علم يسيرون في الأرض، ويخترقون الآفاق، يتحدّون في ذلك الأهوال والمخاطر، يُسجّلون ما يقع تحت أعينهم، ويُدوّنون ما يُلفت انتباههم، فمن كان منهم مُتعلّماً يزور في طريق رحلته مراكز الثقافة الإسلامية، فيستمع إلى كبار الشيوخ والأساتذة. ومن كان منهم عالماً يزور هذه المراكز ليُلقي ثَمّة الدروس والمحاضرات، فهم جميعاً في حلّهم وترحالهم، في ظعنهم وإقامتهم، يُفيدون ويستفيدون.

إحالات وهوامش:

- (1) المقصود بالمغرب العربي هنا هو تلك الرقعة الجغرافية التي تمتد من ليبيا شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً، ثم من السودان إلى موريتانيا مروراً بالصحرَاء الكبرى.
- (2) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، المجلد 11، ص 274 - 278، دار صادر، بيروت، 1968م. و مختار الصحاح، الرازي، ت: مصطفى البغا، ص 160، دار الهدى، الجزائر.
- (3) اتّجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، عمر بن قينة، ص 11، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.
- (4) سورة التوبة، الآية: 122.
- (5) سورة الحج، الآية: 27.
- (6) مقدمة ابن خلدون، ص 773، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م.
- (7) الإجازة تشبه الشهادة العلمية في وقتنا الحاضر، وقد تكون الإجازة مشافهة، أو إذناً باللفظ، أو كتابة بحضرة المُجاز أو مغيبه. وهي رأس مال كبير في العلم، وبفضلها يبقى الإنسان، ويُحفظ العلم. **ينظر:** الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، القاضي عياض، ت: أحمد صقر، ص 8، دار التراث، مصر، 1970م.
- (8) الإسناد في العلوم، مثل الإسناد في الحديث النبوي الشريف، وهو إيصال سند الحديث من رواته إلى منتهاه، وبه تبيّن صحّة الحديث ويظهر اتّصاله. **ينظر:** الإلماع، ص 294.
- (9) أدب المغرب العربي قديماً، عمر بن قينة، ص 25، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.
- (10) مقدمة ابن خلدون، ص 1044.
- (11) دور المسلمين في تقدّم الجغرافيا الوصفية، إسماعيل العربي، ص 63، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م.

- (12) آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 87، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.
- (13) ديوان الشافعي، ت: زهدي يكن، ص 48، دار الثقافة، بيروت، 1961م.
- (14) القراءة على الشيخ هي نوع من أنواع الأخذ، أي أخذ الرواية وهي صحيحة، جعلها القاضي عياض الضرب الخامس من ضروب الأخذ. (الإلماع، ص 70 وما بعدها).
- (15) من كلام ابن تاويت في مقدمة تحقيقه لكتاب: ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ج1، ص: ب، الرباط، المغرب.
- (16) المقدمة، ص 1045.
- (17) شمس العرب تسطع على الغرب، زيفرد هونكه، ت: فاروق بيبزون، ص 398، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1964م.
- (18) الجزائر من خلال رحلات المغاربة، مولاي بالحميسي، ص9، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.
- (19) رحلة القلصادي، ت: محمد أبو الأجفان، ص 38، الشركة التونسية للتوزيع، 1987م. (لم ترد الأبيات في ديوان الشافعي، فربما تكون ممّا نُسب إلى الشافعي من الشعر).
- (20) فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ت: إحسان عباس، ج1، ص38، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م.
- (21) رحلة التيجاني، ت: حسن حسني عبد الوهاب، ص4 (مقدمة المحقق)، المطبعة الرستمية، تونس، 1958م.
- (22) تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج1، ص 241، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.
- (23) مقدمة ابن خلدون، ص 91.
- (24) النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج1، ص 88، بيروت، 1961م.
- (25) هو السلطان زكريا بن أحمد بن عمر اللحياني الهنتاني، صاحب تونس، مَلِك سنة 670هـ، ولُقّب بالفائز بأمر الله، توفي سنة 727هـ. **ينظر:** (درة الحجال في معرفة أسماء الرجال، أحمد بن القاضي، ت: محمد أبو النور، ج1، ص 277، دار التراث، القاهرة، 1970م).
- (26) فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ج1، ص443.
- (27) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج2، ص135، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1319هـ.
- (28) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقرئ، ت: مصطفى السقا، ج2، ص347، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1940م.
- (29) الرحلة المغربية، العبدري، ت: محمد الفاسي، ص 2 - 3 (مقدمة المحقق)، الرباط، 1968م.

(30) مُستفاد الرحلة والاعترا ب، القاسم التجيبي، ت: عبد الحفيظ منصور، ص:ج (مقدمة المحقق)، الدار العربية للكتاب، تونس.

(31) هو محمد بن جزي الكلبي، أديب من غرناطة، ولد سنة 720هـ، كان كاتباً لسلطان المغرب أبي عنان المريني، ألّف عدّة كتب في الفقه. ينظر: تاريخ الرحلة والاستكشاف، إسماعيل العربي، ص 57، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

(32) لقب بهذه الألقاب تمييزاً له عن باقي أفراد عائلته من العلماء المرازقة. ينظر: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التتبكتي، ص268، مطبعة الصادي، مصر، 1329هـ). و(نفع الطيب، أحمد المقرّي، ت: إحسان عباس، ج5، ص390، دار صادر، بيروت، 1969م.

(33) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم المديوني، ص184، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.

(34) الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ج1 و2، فاس، 1316هـ.

(35) نشر أزاهير البستان، ابن زاكور الفاسي، ت: عبد الوهاب بن منصور، ص4 (مقدمة المحقق)، الرباط، 1967م.

(36) اعتمدت في الحديث عن رحلة ابن عمار على الدراسة التي وضعها لها الأستاذ: أبو القاسم سعد الله في كتابه (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 182 وما بعدها، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م).

المصادر والمراجع:

- ❖ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- ❖ اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، عمر بن قينة، ص11، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.
- ❖ آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 87، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.
- ❖ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج2، ص135، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1319هـ.
- ❖ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 182 وما بعدها، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- ❖ أدب المغرب العربي قديماً، عمر بن قينة، ص 25، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.
- ❖ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقرّي، ت: مصطفى السقا، ج2، ص347، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1940م.

- ❖ الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، القاضي عياض، ت: أحمد صقر، ص 8، دار التراث، مصر، 1970م.
- ❖ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بلمسان، ابن مريم المديوني، ص 184، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
- ❖ تاريخ الرحلة والاستكشاف، إسماعيل العربي، ص 57، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- ❖ ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ج 1، ص: ب، الرباط، المغرب.
- ❖ الجزائر من خلال رحلات المغاربة، مولاي بالحميسي، ص 9، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981م.
- ❖ درة الحجال في معرفة أسماء الرجال، أحمد بن القاضي، ت: محمد أبو النور، ج 1، ص 277، دار التراث، القاهرة، 1970م.
- ❖ دور المسلمين في تقدّم الجغرافيا الوصفية، إسماعيل العربي، ص 63، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م.
- ❖ ديوان الشافعي، ت: زهدي يكن، ص 48، دار الثقافة، بيروت، 1961م.
- ❖ الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ج 1 و 2، فاس، 1316هـ.
- ❖ الرحلة المغربية، العبدري، ت: محمد الفاسي، ص 2 - 3 (مقدمة المحقق)، الرباط، 1968م.
- ❖ فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ت: إحسان عباس، ج 1، ص 38، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1982م.
- ❖ رحلة القلصادي، ت: محمد أبو الأجفان، ص 38، الشركة التونسية للتوزيع، 1987م.
- ❖ شمس العرب تسطع على الغرب، زيفرد هونكه، ت: فاروق بيضون، ص 398، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1964م.
- ❖ لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، المجلد 11، ص 274 - 278، دار صادر، بيروت، 1968م.
- ❖ مختار الصحاح، الرازي، ت: مصطفى البغا، ص 160، دار الهدى، الجزائر.
- ❖ مُستفاد الرحلة والاعترا ب، القاسم التجيبي، ت: عبد الحفيظ منصور، ص ج (مقدمة المحقق)، الدار العربية للكتاب، تونس.
- ❖ مقدمة ابن خلدون، ص 773، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م.
- ❖ النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج 1، ص 88، بيروت، 1961م.
- ❖ نشر أزهير البستان، ابن زاكور الفاسي، ت: عبد الوهاب بن منصور، ص 4 (مقدمة المحقق)، الرباط، 1967م.
- ❖ نفح الطيب، أحمد المقرئ، ت: إحسان عباس، ج 5، ص 390، دار صادر، بيروت، 1969م.
- ❖ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ص 268، مطبعة الصادي، مصر، 1329هـ.